الفصل الثاني عشر

طبقات القبائل

ورتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب ، هي : شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم وبني أمية ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس[1] . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة ، هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل[2] . وبنى (النويري) طبقات القبائل على عشر طبقات هي : الجذم ، والجماهير ، والشعوب ، والقبائل ، والعمائر ، والبطون ، والأفخاذ ، والعشائر ، والفصائل والأرهاط[3] . ورتب (نشوان ابن سعيد الحميري) القبائل على هذا النحو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الجيل ، ثم الفصيلة . وجعل مضر مثال الشعب ، وكنانة مثال القبيلة ، وقريشاً مثال العمارة ، وفهراً مثال البطن ، وقُصَيّاً مثال الفخذ ، وهاشماً للجيل ، وآل العباس للفصيلة[4] .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٨٧ فما بعدها) ، اللسان (١٤/٥٧) ، (البطن دون القبيلة ، وقيل هو دون الفخذ وفوق العمارة) ، اللسان (١٦/١٩٩) ، الاكليل (١/٢٢) .
٢ العقد الفريد (٣/٢٨٣ فما بعدها) .
٣ نهاية الارب (٢/٢٦٢ فما بعدها) .
٤ منتخبات (ص ٥٥) .

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة ، والظاهر ان هذه الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حيث ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع ، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير الى هذا المعنى ، مثل اطلاقهم العرب على العرب جميعاً اصطلاحاً ، وحيث أخذ الحس القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة الغرباء ، كالذي حدث في معارك اليمن مع الحبش ، وفي معارك عرب العراق مع الفرس . وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على القبائل « وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا »[1] . فالشعوب هنا فوق القبائل وتعبر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه .

وزاد بعض العلماء الجذم ، بأن وضعوها قبل الشعب ، ووضعوا الفصيلة بعد العشيرة ، ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة : الجذم ، ثم الجمهور ، ثم الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة ، ثم الرهط ، ثم الأسرة ، ثم العترة ، ثم الذرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة ، هي : البيت ، والحي ، والجماع .

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب ، هو في الترتيب ، أي من حيث التقديم والتأخير ، وفي اضافة بعض المصطلحات أو في نقصها . أما من حيث العموم ، فإننا نجدهم يتفقون في الغالب ، ولا يختلفون أبداً في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات . ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القريبين من الإسلام . أما بالنسبة الى الجاهليين البعيدين عنه ، فلن يكون حكمنا عليهم علمياً إلا إذا أخذنا مصطلحاتهم من كتاباتهم . ولم نتمكن ويا للأسف من الحصول على مادة منها تفيدنا في هذا الباب . فليس لنا إلا الصبر والانتظار .

والقبيلة : الجماعة تنتمي الى نسب واحد[2] ، ويرجع ذلك النسب الى جدّ أعلى ، أو الى جدّة وهو في الأقل . ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها

---

١ الحجرات ، الرقم ٤٩ ، الاية ١٣ .
٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٤٠٠) .

العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين[1] .

والقبيلـــة هي المجتمع الأكبر بالنسبة الى أهـل البادية ، فليس فوقها مجتمع عندهم . وهي في معنى (شعب) عندنا وفي مصطلحنا الحديث . وتتفرع من القبيلة فروع وأغصان ، هي دون القبيلة ، لأنها في منزلة الفروع من الشجرة : ثم اختلفوا في عدد الفروع المتفرعة من القبيلة ، فجعل بعضهم بعد القبيلة العمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ثم الفصيلة[2] ، وجعل بعض آخر ما دون القبيلة : العمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وزاد بعض آخر قبل الشعب الجِذم، وبعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتب بعض النسابين طبقات النسب على هذا النحو : جذم ، ثم جمهـور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد بعضهم في أثنائها ثلاثة ، وهي : البيت والحي ، والجماع[3] .

ويدل اختلاف النسابين في ضبط أسماء ما فوق القبيلة أو ما تحتها،واضطرابهم في الترتيب على أن هـــذا الترتيب لم يكن ترتيباً جاهلياً أجمع الجاهليون عليه ، وإلا لما تباينوا هذا التباين فيه ، ولما اختلفوا هذا الاختلاف في سرده ، إنمـــا هو ترتيب اجتهادي أخذه العلماء من أفواه الرواة ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم ومن اجتهادهم أنفسهم ، فرتبوها على وفق ذلك الاجتهاد .

وأكثر هذه المصطلحات لم ترد لا في الكتابات الجاهلية ولا في الشعر المنسوب الى الجاهليين ، لذلك يصعب على الانسان أن يبدي رأياً علمياً مقبولاً فيهـــا ، وأعتقد أن خير ما يمكن فعله في هـــذا الباب هو استنطاق الكتابات الجاهلية وتفليتها وتفلية الشعر الجاهلي للبحث عما فيه من مصطلحات تتعلق بالنظم القبلية ، وعندئذ نتمكن من تكوين رأي قريب من الصواب والصحة في هذا الموضوع .

ومن أجل ذلك قال (روبرتسن سمث) ان البطن والحي هما أساس أقـــدم أشكال المجتمعات السياسية عند الساميين .

---

١ Naval, P. 403.

٢ بلوغ الارب (١٨٨/٣) .

٣ بلوغ الارب (١٨٨/٣) .

كما استدل من أسماء بعض القبائل التي تحمل أسماء بعض الحيوانات ، مثل : بني أسد ، وبني كلب ، وبني بدن ، وبني ثعلب ، وبني ثور ، وبني بكر، وبني ضب ، وبني غراب ، وبني فهد ، وما شاكل ذلك من أسماء جماعة من القبائل ، وبعضها عماثر ، وبعضها بطون أو فصائل على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أن هذه الأسماء هي من ذكريات (الطوطمية) القديمة .

وقد تأثر بنظريته هذه جماعة من العلماء . وعدّ بعض العلماء نظرية (الطوطمية) مفتاحاً يوصل الى حل كثير من المسائل الغامضة من تأريخ البشرية القديم .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على أن تنوخاً اسم لعشر قبائل، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

وينطبق ما قلته عن تنظيم القبيلة وبناء الأنساب عليه على أهل الحضر أيضاً . فالحضر ، ولا سيما حضر الحجاز ، وان استقروا وأقاموا غير أنهم لم يتمكنوا من ترك النظم البدوية الاجتماعية القائمة على مراعاة قواعد النسب وفقاً للتقسيمات المذكورة . وهي تقسيمات أوجدتها طبيعة الحياة في البادية ، تلك الحياة الشحيحة التي لا تتحمل طاقاتها تقديم ما يحتاج اليه مجتمع كبير مستقر من مأكل وماء ، ولذلك اضطرت المجتمعات الكبرى ، وهي القبائل،على التشتت والانقسام والانتشار كتلاً تختلف درجات حجمها حسب طبيعة الأرض التي نزلت بها ، من حيث الكرم والبخل . ولما استقر بعض هؤلاء البدو وتحضروا في أماكن ثابتة مثل مكة ويثرب والطائف ، حافظوا على نظمهم الاجتماعية المذكورة الموروثة من حياة البادية ، وعاشوا في مدرهم أحياءً وشعاباً عيشة قائمة على أساس الروابط الدموية والنسب ، كما سأتحدث عن ذلك في الحياة الاجتماعية .

والنسب عند العرب ، هو نسب يقوم إذن على الطبقات المذكورة ، كما أن

الطبقات المذكورة قائمة على دعوى النسب ، فبين النسب وبناء المجتمع ، صلة وارتباط ، ولا يمكن فك أحدهمـــا عن الآخر . ولهذا نجد شجرات الأنساب تتفرع وتورق وتزهر على هذا الأساس .

وأنا لا أستثني المجتمع العربي في الجنوب ، الذي تغلب عليه حياة الاستقرار والسكن والاستيطان من هذا التنظيم . فنحن وإن لم نتمكن حتى الآن من الحصول على كتابات كافية تقدم لنا صورة واضحة عن الأنساب وعن تنظيمات المجتمـــع عند المعينيين والسبئيين وغيرهم من العرب الجنوبيين ، غير أن في بعض الكتابات التي وصلت الينا اشارات تفيد وجود هذا التنظيم عند العرب الجنوبيين ..

والعرب الجنوبيون وإن غلبت عليهم حياة السكن والاستقرار ، غير أن زمانهم لم يتمكن من تحرير نفسه من قيود الحيـاة القبلية ، ولم يكن من الممكن بالنسبة لهم الابتعاد عن الاحتماء بالعصبية القبلية وبعرف القبيلة ، فالطبيعة اذ ذاك طبيعة حتمت على الناس التمسك بتلك النظم لحماية أنفسهم وللدفاع عن أموالهم حيث لا حق يحمي المرء غير حق العصبية القائم على أساس النسب والدم .

ويعبر عن القبيلة بلفظـــة (شعم) و (شعبن) في العربيات الجنوبية . أي (قبيلة) و (القبيلة)[1] . أما لفظة (القبيلة) فلم أعثر على وجود لها في كتابات المسند . فلعلّها من الألفاظ الخاصة بأهل الحجاز ونجد . وأما ما دون (الشعب) ، أي القبيلة في اصطلاحنا ، فلم أقف على مسمياتها بالنحو الذي يذكره أهل الأنساب . وإنما نجد العرب الجنوبيين يقسمون القبيلة الى أقسام ، مثل (ربعن) أي (ربع) و (ثلثن) أي ثلث . ويريدون بذلك ، ربع قبيلة وثلث قبيلة . وربما كانوا يقسمونها إلى أقسام أخرى ، لم تصل أسماؤها الينا ، ولعل الأيام ستزودنا بما كان العرب الجنوبيون يستعملونه من مصطلحات في النسب عندهم ، وذلك قبـل الإسلام بزمـــان طويل ، وبالمصطلحات الـــتي كانوا يطلقونها على فروع القبيلة في تلك الأوقات .

وبينما نجد أهل الأنساب ينسبون أهل الوبر وأهل المدر الى أجـــداد ، عاشوا

---

١ راجع النصوص : ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ من كتاب «نشر نقوش سامية قديمة» لخليل يحيى تامي .

وماتوا ، نجد المعينيين مثلاً . يستعملون جملة . (أولدهو ود)[1] . أي (أولاد ودّ) ، و (ودّ) هو إلّه شعب معين الأكبر . كما نجد السبئيين يطلقون على أنفسهم (ولد المقه)[2] ، أي أولاد الإلّه (المقه) . والمقه كما سنرى فيما بعد ، هو إلّه سبأ الأول . ونجد القتبانيين يدعون أنفسهم (ولد عم) ، أي أولاد عم[3] . ومعنى هذا ، ان كل قبيلة من القبائل المذكورة، نسبت نفسها إلى إلهها الخاص بها واحتمت به ، تماماً كما فعل العبرانيون وغيرهم ، إذ نسبوا أنفسهم إلى إلّه قومي اعتبروه إلههم الخاص بهم ، المدافع عنهم ، والذي يرزقهم وينفعهم . وقد يعدّ هذا نسباً . أما نسب على النحو الذي يقصده ويريده أهل الأخبار ، أي جد عاش ومات وله أولاد وحفدة ، فهذا لم يصل خبره الينا في كتابات المسند ، بل في كل ما وصل الينا من كتابات جاهلية حتى الآن .

الأنساب :

وأقرب تفسير الى أنساب العرب في نظري هو ان النسب ، ليس بالشكل المفهوم المعروف من الكلمة ، وانما هو كناية عن (حلف) يجمع قبائل توحدت مصالحها ، واشتركت منافعها ، فاتفقت على عقد حلف فيما بينها ، فانضم بعضها الى بعض ، واحتمى الضعيف منها بالقوي ، وتولدت من المجموع قوة ووحدة ، وبذلك حافظت تلك القبائل المتحالفة على مصالحها وحقوقها . قال البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالّهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم » .

لقد حملت الضرورات قبائل جزيرة العرب على تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . واذا دام الحلف

---

١ Euting 57, Jaussen et Savignac, Mission, I, P. 255, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

٢ Glaser 1000 A.

٣ Glaser 1600, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

أمداً ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإن هذه الرابطة تنتهي الى نسب ، حيث يشعر أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جد واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتنظم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى، وهكذا نجد في جزيرة العرب أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف .

لم يكن في مقدور العشائر أو القبائل الصغيرة المحافظة على نفسها من غـير حليف قوي ، يشد أزرها اذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخـذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، الا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، يذكر أهل الأخبار انها كانت تتفاخر لذلك بأنفسها، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخـذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائـل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً، وطالما انتهت كما انتهت عند العرب إلى نسب ، حيث يشعر المتحالفون انهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد . ويقال للحلف أيضاً (تحالف) ، وعند اليمانين (تكلع) .

ويرى (كولدتزيهر) انه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف فإنها أساس تكوّن أنساب القبائل ، فإن هذه الأحلاف التي تجمع شمل عدد من البطون والعشائر والقبائل هي التي تكوّن القبائل والأنساب ، كما ان تفكك الأحلاف وانحلالها يسبب تفكك الأنساب وتكوين أنساب جديدة ويرى أيضاً أن الدوافع التي تكوّن هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي ، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة.ولذا نجد الضعيف منها يفتش عن حليف قوي،فانضمت (كعب) مثلاً الى (بني مازن) وهم أقوى من (كعب) ، وانضمت (خزاعة) الى (بني مدلج) ، كما تحالفت (بنو عامر) مع (اياد) وأمثلة أخرى عديدة . ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل الفعال في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، فمتى نفذت

أو تلكأ أحد الطرفين في التنفيذ انحل الحلف . وتعد هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التأريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل المحلية التي تخص القبائل ، ولم تكن موجهة للدفاع عن جزيرة العرب ولمقاولة أعداء العرب . ولا يمكن أن نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية أن يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فإذا ارتحلت عنها ونزلت في أرض جديدة، كانت الأرض الجديدة المواطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

خذ اختلاف النسابين في نسب بعض القبائل وتشككهم فيه ، فإنه في الواقع دليل قوي يؤيد هذا الرأي، فقد اختلف في نسب (أنمار) مثلاً . فمنهم من عدّها من ولد (نزار) ، ومنهم من أضافها الى اليمن . والذين يضيفونها الى (نزار) يقولون ان انماراً من نزار ، وأنمار هو شقيق ربيعة ومضر وإياد ، فهو أحد أبناء نزار . دخل نسله في اليمن ، فأضيفوا اليه ، ومن هنا حدث هذا الاختلاف . أما اليمانية ، فانهم يرون أن أنماراً هو منهم ، وقد كان أحد ولد (سبأ) العشرة . فهو عندهم شقيق لخم وجذام وعاملة وغسان وحمير والأزد ومذحج وكنانة والأشعريين ويرون أن بجيلة ، وخثعماً من أنمار. ويستدلون على ذلك بحديث ينسبونه الى الرسول .

وأما الذين يرجعون نسبه إلى (نزار) فيستدلون على نسبه هذا بحديث ينسبونه إلى الرسول أيضاً . وفي الجملة لا يهمنا هنا موضوع نسب (أنمار) أكان في اليمن أم كان في نزار ، وانما الذي يهمنا أن الأحلاف تؤثر تأثيراً كبيراً في نشوء النسب ، فلولا دخول أنمار في اليمن ونزولها بين قبائل يمانية ، لما دخل نسبها في اليمن . ولولا دخول أنمار في قبائل عدنانية وتحالفها معها لما عدها النسابون من نزار ، ولما عدّوا أنماراً ابناً من أبناء نزار الأربعة . فاختلاط (أنمار) في اليمن وفي نزار وترددها بين الجماعتين هو الذي أوقع النسابين في مشكلة نسبها .

وطالما دفعت الحروب القبائل المغلوبة على الخضوع لسيادة القبائل الغالبة وقد تتحالف معها وتدخل في جوارها، وإذا دام ذلك طويلاً ، فقد يتحول الحلف والجوار الى

نسب.ثم إن تقاتل القبائل بعضها مع بعض يؤدى أحياناً الى ارتحال بعض هذه القبائل المتقاتلة الى مواطن جديدة فتنزل بين قبائل أخرى ، وتعقد معها حلفاً وتجاورها ومتى طال ذلك صار نسباً ، كالذي ذكره أهل الأنساب من نزوح قبائل عدنانية الى اليمن بسبب تقاتلها بغضها مع بعض ، مما أدى الى دخول نسبها في اليمن، وكالذي ذكروه أيضاً من نزوح قبائل يمانية نحو الشمال واختلاطها بقبائل عدنانية مما أدى الى دخول نسبها في نسب تلك القبائل .

وتجد في كتب الأنساب والأخبار أمثلة كثيرة على اختلاط أنساب قبائل معروفة في عدنان وفي قحطان ، كما رأيت فعل السياسة في تكييف النسب في مصدر الاسلام وفي عهد الدولة الأموية وتنظيمه ، كما رأيت كيف أن بعض النسابين ينسبون قبيلة الى أب قحطاني على حين ينسبها بعض آخر الى أب عدناني ، وكيف أن نسابي القبيلة كانوا يرون رأياً آخر . وقد رأيت كيف أن بعضهم رجع نسب ثقيف الى (ثمود) بغضاً للحجاج الذي كان من ثقيف، ورأيت أيضاً اختلاف النسابين فيما بينهم في رسم شجرات الأنساب .

لقد وقع هذا الاختلاف لعوامل عديدة سياسية وجغرافية وعاطفية ، لا يدخل البحث فيها في هذا المكان .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على ان تنوخاً اسم لعشر قبائل ، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار .

وبين أجداد القبائل والأسر الذين يذكرهم أهل الأنساب ، أجداد كانوا أجداداً حقاً ، عاشوا وماتوا . وقد برزوا بغزواتهم وبقوة شخصياتهم ، وكونوا لقبائلهم وللقبائل المتحالفة معها أو التابعة لها مكانة بارزة ، جعلتها تفتخر بانتسابها اليهم ، حتى خلد ذلك الفخر على هيأة نسب . ونجد في كتب الأنساب أمثلة عديدة لهؤلاء .

(الطوطمية) ودور الأمومة عند العرب :

وقد لاحظ العلماء المحدثون ان بين أسماء القبائل ، أسماء هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد أو أجرام فلكية . كما لاحظوا ان بين المصطلحات الواردة في النسب مصطلحات لها علاقة بالجسم وبالدم . وقد وجدوا ان بين هذه التسميات والمصطلحات وبين البحوث التي قاموا بها في موضوع دراسة المجتمعات البدائية صلة وعلاقة . وان للتسميات المذكورة صلة وثيقة بـ (الطوطمية) ؛ كما ان للمصطلحات صلة بما يسمى بـ (دور الأمومة) أو (زواج الأمومة)عند علماء الاجتماع .

والطوطمية نظرية وضعها (ماك لينان) (مكليناان) المتوفى سنة ١٨٨١م ، خلاصتها :

١ ـ ان الطوطمية دور مرّ على القبائل البدائية ، وهي لا تزال بين أكثر الشعوب اغراقاً في البدائية والعزلة .

٢ ـ ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً، كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد انها متسلسلة منه وتسمى باسمه .

٣ ـ تعتقد تلك القبائل ان طوطمها يحميها ويدافع عنها ، أو هو على الأقل لا يؤذيها وان كان الأذى طبعه .

٤ ـ لذلك تقدس القبيلة طوطمها وتتقرب اليه وقد تتعبد له .

٥ ـ الزواج ممنوع بين أهل الطوطم الواحد ، ويذهبون إلى الزواج من قبائل غريبة عن قبيلة الطوطم المذكور . وهو ما يعبر عنه بـ (Exogamy) في اللغة الانكليزية . اذ يعتقدون ان التزاوج من بين أفراد القبيلة الواحدة ذو ضرر بالغ ، ومهلك للقبيلة ، لذلك يتزوج رجال القبيلة نساءً من قبيلة أخرى غريبة ، لا ترتبط بطوطم هذه القبيلة،والمخالف لهذه القاعدة ، أي الذي يتزوج امرأة من قبيلته يعرض نفسه للعقوبات قد تصل الى الحكم عليه بالموت .

٦ ـ الأبوة غير معروفة عند أهل الطوطم،ومرجع النسب عندهم إلى الأم .

٧ ـ لا عبرة عندهم إلى العائلة ، والقرابة هي قرابة الطوطم ، فأهل الطوطم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد[1] .

---

١ من كتاب جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي (٢٤٤/٣ وما بعدها)

والطوطمية (Totemism) ، لفظة أخذت من كلمة (Ototemom) ، وهي من كلمات قبيلة (Ojibwa) من قبائل هنود أمريكا [1] . اشتق منها (لانك) (J. Lang) كلمة (توتم) (Totem) ،ومنها أخذ اصطلاح (طوطمية) (توتميسم) (Totemism) [2] الذي يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسة ، ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها [3] . وتشمل الطوطمية النباتات كذلك ، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها أو إلحاق الأذى بها . وقد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهر الطبيعة مثل المطر والنجوم والكواكب [4] .

وهم يؤمنون بأن (الطوطم) لا يؤذي أتباعه . فلا يخافون منه ، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية ، التي تلحق الأذى بالإنسان ، كالحية أو العقرب أو الذئب . وهم يعتقدون أيضاً أنه يدفع عنهم ، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب وقوع خطر على أتباعه ، وذلك بعلامات واشارات على نحو ما يقال له الزجر والطيرة والفأل .

وهم يتقربون الى طوطمهم ، محاولة منهم في كسب رضاه ، فيقلدونه في شكله ومظهره ، وقد يلبسوا جلده أو جزءاً من جلده ، أو يعلقون جزءاً منه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو من التعاويذ . لأنه يحميهم بذلك ويمنع عنهم كل سوء . كما يحتفلون به وبالمناسبات مثل مناسبات الولادة أو الزواج أو الوفاة بنقش رمز الطوطم على ظهر المولود ، أو دهن الجسم بدهن مقدس من دهان ذلك الطوطم الى آخر ما هنالك من أعراف وتقاليد [5].

ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين أفرادها ، أي بوجود صلة رحم بينها . والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة اليه وتلتف حوله ، ليكون حاميها والمدافع عنها في الملمات . ومن أصحاب هذا المذهب من لا يذكر اسم الطوطم ، بل يُكنى عنه . ويجوز أن يكون ذلك خوفاً

---

١ Enc. Reli. Vol. 9, P. 454, Peter Jones, History of the Ojibwa Indians, London, 1961, Enc. Reli. Vol. 12, P. 393.

٢ Voyages and Travels of an Indian Interpreter and Trader, London, 1791.

٣ Lang, Voyages, P. 87, Wesleyen, Journals of Two Expeditions of Discovery in N.W. and W. Australia, London, 1841, 11, 225, f. 391.

٤ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394.

٥ التمدن الاسلامي (٣/٢٤٢ وما بعدها) .

منه ، أو احتراماً له . وقد يرسم له شعار تحمله الجماعة وأفرادها . ولها قوانين وآراء في موضوع الزواج الذي تترتب عليه قضية القرابة وصلات الرحم[1] .

وللعلماء نظريات وآراء في الطوطمية . وهي منصبّة على دراسة الناحية الاجتماعية منها ، من حيث كون « الطوطمية » نظاماً اجتماعياً يقوم على أساس مجتمع صغير مبني على العشيرة أو القبيلة . أما الدراسات الدينية للطوطمية ، فهي بعد هذه الدراسة من حيث التوسع والتبسط في الموضوع . وأكثر هذه الدراسات أيضاً عن قبائل هنود أمريكا الشمالية وعن قبائل اوستراليا ثم افريقية . أما أثر الطوطمية عند الشعوب القديمة مثل اليونان والشعوب السامية فإن بحوث العلماء في المراحل الأولى من البحث ، وهي مستمدة بالطبع من الاشارات الواردة في الكتابات أو المؤلفات أو من دراسات الأسماء .

ومن أشهر أصحاب النظريات في موضوع الطوطمية (تيلر) (Sir E. B. Tylor)[2] و (سير جيمس فريزر) (Sir J. G. Frazer) ، وهذا الأخير يرفض نظرية الذاهبين الى أن الطوطمية في شكلها الأول هي ديانة ؛ لأن الطوطم لا يعبد كما يقول على صورة صنم[3] .

ومن أسماء الحيوانات التي تسمّت بها البطون والعشائر : كلب ، وذئب ، ودبّ ، وسلحفاة ، ونسر ، وثعلب ، وهرّ ، وبطة ، وثور ، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطواطم . يضاف الى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى وطائفة من أسماء الأسماك . وقد ذكر (بيتر جونس (Peter Jones) أربعين بطناً من بطون قبيلة الـ (Ajibwa) لها أسماء حيوانات[4] .

وقد لاحظ (روبرتسن سمث) (Robertson Smith) ان في أسماء القبائل عند العرب أسماء كثيرة هي أسماء حيوان أو نبات أو جماد . فاتخذ من هذه الأسماء دليلاً على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أثرها في الجاهليين .

---

١ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394, J. Lubbach, Origin of Civilization, 1905, A. Lang, The Secret of the Tate. 1905, Frazer, Totemism and exogemy, 4. Vols. 1910, Frend, Tatem and Tabu, 5. ed. 1934.

٢ Taylor, Primitive Culture, Vol. I, P. 402.

٣ Bowman, P. 98. f.

٤ Enc. Religi. Vol. 12, P. 394.

فأسماء مثل : بني كلب ، وبني كليب ، والنمر ، والذئب ، والفهد ، والضبع والدب ، والوبرة ، والسيد ، والسرحان ، وبكر ، وبني بدن ، وبني أسد ، وبني يشكر ، وبني ثور ، وبني جحش ، وبني ضبّة ، وبني جعل ، وبني جعدة ، وبني الأرقم ، وبني دُئل ، وبني يربوع ، وقريش ، وعنزة ، وبني حنش ، وبني غراب ، وبني فهد ، وبني عقاب ، وبني أوس ، وبني حنظلة ، وبني عقرب ، وبني غنم ، وبني عفرس ، وبني كوكب، وبني قنفذ، وبني الثعلب ، والسيد ، وبني قنفذ ، وبني عجل ، وبني انعاقه ، وبني هوزن، وبني ضب ، وبني قراد ، وبني جراد[1] ، وما شاكل ذلك من أسماء ، لا يمكن في نظره الا أن تكون أثراً من آثار الطوطمية ، ودليلاً ثابتاً واضحاً على وجودها عندهم في القديم[2] .

وقد لاقى تطبيق روبرتسن سمث نظرية (الطوطمية) على العرب الجاهليين ، ترحيباً عند بعض المستشرقين ، كما لاقى معارضة من بعضهم . وقد رد عليه (جرجي زيدان) في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي)، وبيّن أسباب اعتراضه على ذلك التطبيق[3] .

دور الأمومة :

واتخذ (روبرتسن سمث) من تسمي بعض القبائل بأسماء مؤنثة مثل : (مدركة) (وطابخة) و (خندف) و (ظاعنة) و (قيلة) و (جديلة) و (مُرّة) و (عطيّة) ، وأمثالها ، دليلاً على وجود ما يسمى بـ (دور الأمومة) عند العرب . وهو دور لم يكن للنساء فيه أزواج معيّنون ، لأن الزواج لم يكن فيه بالمعنى المفهوم من الزوجية عندنا ، بل كان الرجل يجتمع بالمرأة ثم يتركها ، ليجتمع بامرأة أخرى ، وهكذا تكون المرأة قد اتصلت بجملة رجال ، كما يكون الرجل قد اتصل بجملة نساء . واذ كانت المرأة لم تكن تعرف زوجها الذي

---

١ الاكليل (١/١٨٢ وما بعدها) ، الاشتقاق (٩٠ ، ١٨٧) ،التمدن الاسلامي(٣/٢٦٦)
Kinship, P. 188.

٢ Robertson Smith. Kinship and Marriage in Early Arabia. Religion of the Semites, 2nd. ed. London, 1894, P. 35.

٣ (حـ ٣/ ٢٤٠ وما بعدها) .

نجل مولودها ، ولا يعرف المولود والده نُسب إلى أمه وعرف بها . وبهذا التفسير ، فسر (روبرتسن سمث) ومن ذهب مذهبه من علماء علم الاجتماع ، وجود الأسماء المؤنثة عند العرب وعند العبرانيين وعند بقية الساميين[1] .

واتخذ (روبرتسن سمث) من وجود بعض الكلمات في تسلسل أنساب القبائل مثل : البطن والفخذ والصلب والظهر والدم و (رحم) ، دليلاً آخر على وجود (دور الأمومة) عند العرب ، لأن لهذه الألفاظ صلة بالجسم ، ولهذا كان اطلاقها عند قدماء العرب — على حد قوله — علاقة بجسم الأم . ولا سيما أنهم استعملوا لفظة (الحي) كذلك . ولهذه اللفظة علاقة بالحياة وبالدم . واطلاق الألفاظ في نظره ورأيه على معان اجتماعية ، دليل على الصلة التي كانت للأم في المجتمع لذلك العهد[2] .

وقد بحث (روبرتسن سمث) بحثاً مفصلاً في الحي ، إذ هو في نظره وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها[3] . ويطلق على (الحي) لفظة (قوم) و(أهل). وينظر أبناء الحي الواحد بعضهم الى بعض نظرة قرابة ، فكأنهم من نسل واحد يربط بينهم دم واحد . وقد استدل (روبرتسن سمث) من معنى (الحي) على وجود معنى الحياة في الكلمة في الأصل ، كما هو الحال في اللغات السامية ، ورأى لذلك أنها تمثل رابطة قرابة وصلة رحم عند سائر العرب السامية . ويكون أعضاء الحي الأحرار (صرحاء) ، وفي العبرانية (أزراح) . أما الذين ينتمون اليه بالولاء ، فهم (الموالي) يستجيرون به أو بالقبائل أو الأفراد ، فيلقون حماية من يستجيرون بهم ، ويكون (الجار) في رعاية مجيره .

و (البطن) في نظر (روبرتسن سمث) هو أقدم أوضاع المجتمع السامي القديم ، ويقوم على أساس الاعتقاد بوجود القرابة والروابط الدموية . ويرى أن مفهومه عند قدماء الساميين كان يختلف اختلافاً بيّناً عنه عند العرب المتأخرين ،

---

١ Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, Cambridge, 1885.

٢ Kinship, P. 37. ff. Smith, Religion of the Semites, London, 1894, P. 35.

٣ (الحي : الواحد من احياء العرب ، والحي البطن من بطون العرب . ويقع على بني اب كثروا ام قلوا) ، اللسان (١٨/٢٣٥) ، (والعمارة : الحي العظيم يقوم بنفسه) ، المفضليات (ص ٤١٤) ، بلوغ الارب (٣/١٨٩) . (الحي) ديوان الطرماح (٩٥ ، ١١٤)

أو عند العبرانيين ، أو غيرهم . وقد فهم من اللفظة معنى المجموع الأكبر عند العرب ، أي معنى (شعب) أو (جذم) أو قبيلة ، ورأى أن هـذا المعنى هو المعنى القديم للكلمة عند العرب[1] . أما المعاني التي يذكرها علماء اللغة والأدب والأخبار ، فهي في نظره معان متأخرة وضعت في الجاهلية القريبة من الإسلام، ومن جملة هذه المعاني اختصاصها بالأماكن التي تقيم فيها القبيلة أو العشيرة ، وتتألف من جملة عدد من الدور .

وقد استدل (روبرتسن سمث) من لفظة (البطن) و (الفخذ) وأمثالها على مرور العرب في دور الأمومة ، وعلى أن القبائل كانت قد أخذت أنسابها القديمة وأسمائها من الأمومة ومن (الطوطمية) . ورأى أن كلمة (البطن) في الأصل كانت تعني معنى آخر غير الذي يذهب اليه علماء الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال (رحم) .

ولـ (روبرتسن سمث) بحوث في طرق الزواج عند قدماء العرب ، سأتحدث عنها في موضوع الزواج والطلاق عند الجاهليين في القسم الخاص بالحياة الاجتماعية عند العرب وبالتشريع .

وقد أشار (نولدكه) Noeldeke الى أهمية تأنيث أسماء القبائل[2] ، فاتخذ القائلون بنظرية (الأمومة) من هذه الأسماء دليلاً على أهمية هذا العهد في التأريخ الجاهلي القديم .

وقد وافق (ويلكن) G.A. Wilken على بعض آراء (روبرتسن سمث) ، وخالفه في بعض الآراء[3] .

ومن واضعي نظريـة الأمومـة العالم الألمانـي السويسري (باخأوفن) (Johann Jakob Bachofen) (١٨١٥ — ١٨٨٧م) ، وهو من علماء القانون ومن مؤسسي (علم القانون المقارن) ، وكان معروفاً بأبحاثه عن الأشياء الخفية

---

١ الهلال : الجزء الثامن من السنة الرابعة عشرة ، ايار ١٩٠٦ ، (ص ٤٧٨) ،

٢ Naeldeke, in ZDMG. Bd. XVII, S. 707.

٣ راجع كتاب : « الامومة عند العرب » ، تأليف « ويلكن » ، تعريب بندلي صليبا الجوزي ، قازان ١٩٠٢ م ،

G. A. Wilken, Het Matriarchaatli i de ande Arabieren, Oestr. Monatschrift fur d. Orient, 1889.

التي تؤثر في حياة الانسان . وقد ذهب الى أن تأريخ العالم صراع بين الروح والمادة ، بين الذكر والأنثى ، وأن الحياة الأرضية مزيج من هذين الكفاحين . وقد لفت نظره الى الزواج باعتبار أنه ناحية من النواحي القانونية ، وتعرض لمباحث الزواج عند الانسان القديم ، ولفوضوية الزواج ، حيث كان الرجل يتناول المرأة بغير عقد ، كما تفعل الحيوانات ، ولاشتراك عدد من الرجال في امرأة واحدة ، (Hetarische Gynaikokratie) ، فلا يعرف فيه النسل من أي أب هو ، ولهذا بقي في رعاية أمه ، فنسب اليها ، وهو زواج مرّ على جميع الشعوب . كما بحث عن الأديان البدائية وعلاقتها بأمثال هذا الزواج[1] .

ويجب أن نضيف الى تلك الفوضوية فوضوية أخرى ، هي فوضوية الغزو وتقاتل الانسان مع الانسان واباحة المدن والقرى للجيوش الغازية المنتصرة، يعيثون فيها وفي أهلها فساداً ، يؤدي الى انتهاك الحرمات واستباحة الأعراض وتوالد أطفال ليس في مقدور أمهاتهم معرفة آبائهم،فلا يبقى لهم من مجال إلا الانتساب إلى الأمهات .

ودور الأمومة عند أصحاب هذه النظرية ، هو أقدم أنواع الزواج . وأما (الأبوة) أي دور الزواج الذي عرف النسل فيه آباءهم فهو عندهم أحدث عهداً من الأمومة ، وقد زعموا أن هذين الدورين مرّا على البشرية جمعاء ، وفيهم العرب . وفي دور الأمومة تكون القرابة فيه لصلة الرحم ، أي الى الأم، فهو الرباط المقدس المتين الذي يربط بين الأفراد ويجمع شملهم ، وهو نسبهم الذي اليه ينتمون . ففي هذا الدور لا يمكن أن يعرف فيه الانتساب الى الأب، لسبب عادي هو عدم امكان معرفة الأب فيه . ولهذا كان نسب النسل فيه حتماً للأم . وكان نسب الجماعات فيه أيضاً للأم . ومن هذه الجماعات القبائل . وهم يرون أن تسمي القبائل بأسماء رجال ، بأن تجعلهم أجداداً وآباءً ، هي تسميات محدثة ظهرت بعد ظهور دور الأبوة،وتطور الزواج من زواج الفوضى أو زواج تعدد الرجال الى زواج حدد فيه على المرأة التزوج برجل واحد ليس غير ، يكون فيه بعلها الذي تختص به . ومن هنا اندثرت الأسماء القديمة ، أي أسماء الأناث في الغالب ، وحلت محلها أسماء الذكور . وسيأتي الكلام على موضوع

---

١ Mutterrecht und Urreligion, von R. Mark, in KTA. Bd. 52, Der Mythus von Orient und Okzident, M. Schroeter, 1926, H. Schmidt, Philosophisches Woerterbuch, S. 61.

أشكال الزواج عند العرب في موضعه من هذا الكتاب .

هذا ، وقد بحث (جرجي زيدان) في نظرية (الأمومة) عند العرب وردّ عليها بتفصيل[1] .

أصول التسميات :

وقد ألف (ابن دريد الأزدي) كتاباً في اشتقاق الأسماء عند العرب ، سماه (كتاب الاشتقاق) ، تحدث فيه عن أصول الأسماء واشتقاقها ، وذلك رداً على من زعم أن العرب تسمي بما لا أصل له في لغتهم ، فذكر اشتقاق تلك الأسماء[2] . وقد قال في مقدمته له : « كان الأميون من العرب ... لهم مذاهب في أسماء أبنائهم وعبيدهم وأتلادهم . فاستشنع قوم إما جهلاً وإما تجاهلاً تسميتهم كلباً ، وكليباً ، وأكلب ، وخنزيراً ، وقرداً ، وما أشبه ذلك مما لم يستقص ذكره : فطعنوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستنبط عيب .. وكان الذي حدانا على انشاء هذا الكتاب ، ان قوماً ممن يطعن على اللسان العربي وينسب أهله الى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، والى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم وعدّوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها »[3] .. الى أن قال : « واعلم ان للعرب مذاهب في تسمية أبنائها فمنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو : غالب ، وغلاب ، وظالم ، وعارم ، ومنازل ومقاتل ، ومعارك ، وثابت ونحو ذلك . وسموا في مثل هذا الباب مسهراً ، ومؤرقاً ، ومصبحاً ، ومنبهاً ، وطارقاً . ومنها ما تفاءلوا به للابناء نحو : نايل ، ووايل ، وناج ، ومدرك ، ودرّاك ، وسالم ، وسليم ، ومالك ، وعامر ، وسعد ، وسعيد ، ومسعدة ، وأسعد ، وما أشبه ذلك . ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم نحو : أسد ، وليث ، وفراس ، وذئب ، وسيد ، وعملس ، وضرغام ، وما أشبه ذلك . ومنها سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً ، نحو : طلحة ، وسمرة ، وسلمة ، وقتادة ، وهراسة ، كل

---

١ تاريخ التمدن الاسلامي (٣/٢٤٠ وما بعدها) .
٢ طبعة « وستنفلد » في « كوتنكن » (غوتنكن) سنة ١٨٥٤ م .
٣ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) .

ذلك شجر له شوك وعضاة . ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطئه ، مثل : حجر ، وحجير ، وصخر ، وفهر ، وجندل ، وجرول ، وحزن ، وحزم . ومنها ان الرجل كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو : ثعلب ، وثعلبة ، وضب ، وضبة ، وخزز ، وضبيعة ، وكلب ، وكليب ، وحمار ، وقرد ، وخنزير ، وجحش ، وكذلك أيضاً يسمي بأول ما يسنح أو يبرح لها من الطير ، نحو : غراب ، وصرد ، وما أشبه ذلك .. خرج وابل بن قاسط وامرأته تمخض ، وهو يريد أن يرى شيئاً يسمي به ، فإذا هو ببكر قد عرض له ، فرجع وقد ولدت له غلاماً ، فسماه بكراً ، ثم خرج خرجة أخرى وهي تمخض ، فرأى عنزاً من الظباء ، فرجع وقد ولدت غلاماً فسماه عنزاً .. ثم خرج خرجة أخرى ، فإذا هو بشخيص قد ارتفع له ولم يتبينه نظراً ، فسماه الشخيص .. ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فغلبه أن يرى شيئاً ، فسماه تغلب .. خرج تميم بن مر وامرأته سلمى بنت كعب تمخض ، فإذا هو بواد قد انبثق عليه لم يشعر به ، فقال : الليل والسيل ، فرجع وقد ولدت غلاماً ، فقال : لأجعلنه لإلهي ، فسماه زيد مناة ، ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فإذا هو بمكاء يغرد على عوسجة قد يبس نصفها وبقي نصفها ، فقال لئن كنت قد أثريتِ وأسريتِ لقد أجحدت وأكديت ، فولدت غلاماً فسماه الحرث »[1] ...

قيل لأبي الدقيش الاعرابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ » ، فقال : « إنما نسمي أبناءنا لأعداءنا وعبيدنا لأنفسنا »[2] . وتعرض الجاحظ لهذا الموضوع أيضاً ، فقال : « والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ذكر ، خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حجر أو رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك إذا سمع انساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وان كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد

---

١ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) ، بلوغ الارب (١٩٣/٣ وما بعدها) .
٢ الديري (٢٤٢/٢) .

الصوت والكسب »[1] . ويظهر مما تقدم أن موضوع التسميات عنـد العرب كان من الموضوعات التي لفتت اليها الأنظار ، لما في كثير منها من غرابـة وخروج على المألوف ، فانبرى بعض العلماء في شرح الأسباب التي أدت بالعرب الى اتخاذ تلك التسميات ، والى ذكر العلـل التي دفعتهم عليها كالذي نراه في بحـث (ابن دريد) في كتابه (الاشتقاق) ، حيث ذكر في مقدمتـه كل الأسباب التي رآهـا وتوصل اليها في بحثه عن هـذا الموضوع ، الذي أثار جانباً منه (روبرتسن سمث) وغيره من المستشرقين .

كما سموا بعبد العزى وعبد ود وعبد مناة وعبد اللات وعبد قسي ونحو ذلك ، مما فيه إضافة العبودية لأحد الأصنام .

والمتعارف عليه في الإسلام ، هو ارجاع النسب الى الأب . أما الانتساب الى الأم،فانه قليل الوقوع . ولهذا يعد الرجل عربياً اذا كان والده عربياً ، لا يؤثر فيه نسب أمه إن كانت أعجمية . أما قبل الإسلام ، فإن النسب وإن كان تابعاً لنسب الأب ، إلا أنه قد يلحق الولد بالأم . وبالرغم من هـذا العرف ، فإن العرب في الماضي وفي الحاضر يقيمون وزناً كبيراً لدم الأمهات ، بل قد تزيد أهميته عندهم على أهمية دم الأب . والمثل العراقي العامي (ثلثين الولد على الخال)[2] ، خير تعبير عن وجهة نظرهم تلك ، فإنه يمثل نزعة عرق الخـال[3] . وهي من النزعات التي أقام لها الجاهليون وزناً كبيراً عندهم .

أما وجهة نظر العلم الحديث ، فإن لدم الأبوين أثراً متساويـاً في المولود . ولهذا فان موضوع النسب الى الأب أو الأم ، موضوع لا يعالج عنـده بالعرف والعادة ، بل يعالج وفق قواعد العلم المقررة لديـه . وبناءً على ذلك يجب أن نقيم وزناً لموضوع التزاوج المختلط بين العرب والغرباء، وقد كان معروفاً وشائعاً في الجاهلية أيضاً ، اذ تزوجوا من الرقيق ، ولاسيما الرقيق الأبيض ونسلوا منه، كما سكن في جزيرة العرب آلاف من الغرباء قبل الإسلام واندمجوا في أهلهـا . وتركوا أثراً في دماء أهلها ، يختلف باختلاف مقدار الاختـلاط . ويتبين ذلك بوضوح في سحن سكان السواحل ، لأنهم أكثر عرضـة للاختلاط من أبناء البواطن والنجاد .

---

١ التمدن الاسلامي (٢٦٩/٣) .
٢ اي : ثلثا الولد .
٣ ابن سعد ، الطبقات (حـ٣ ، ق ١ ، ص ٣٣٥) .

ولا تختلف أسماء القبائل العربية في طبيعتها عن طبيعة أسماء القبائل عند الشعوب الأخرى ، ولا سيما قبائل الشعوب المسماة : الشعوب السامية . فهـي أسماء آباء وأجداد ترد غالباً في شكل أسماء ذكور ، وترد في الأقل في صورة أسماء نساء، وتعدّ عندئذ أسماء أمهات ، أي أمهات قبائل . وهي كما قلت قبل قليل ليست أسماء أعيان بالضرورة ، فبينها أسماء مواضع نسب سكانها اليها ، فصارت بمرور الزمن جدّاً ، وأباً ، أو أماً . وبينها أسماء آلهة وأصنام ، تعلق المؤمنون بهـا حتى نسبوا اليها ، وبينها أسماء طواطم . ونجد بين أسماء القبائل العربية أسماء ترد عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب السامية أعلاماً لقبائل كذلك،وقد يكون من المفيد جداً دراسة هذه الأسماء ومقابلتها بعضها ببعض ، ودراسة أسماء القبائل العربية دراسة مستفيضة لمعرفة أصولها وتطورها ومراجعة الموارد الأعجمية والكتابات الجاهلية للعثور على تلك الأسماء فيها وتعيين زمن ظهور الاسم فيها لأول مرة .